مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 07 عدد: 02 السنة: 2021 E-ISSN:2588-2325

ملامح من التّديّن الجبليّ في مخطوطة تغيمّيت لأبي القاسم البرّادي الدّمّري

Features from The mountain religiosity in a Teguemit manuscript to Abu el-Qasim el-Baradi Eddemeri

الهاشمي الحسين*، جامعة قابس houcine.hechmi2020@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/01/22 تاريخ القبول: 2021/05/31 تاريخ النشر: 2021/12/10

ملخص:

في هذا المقال تنزيل لنصّ تراثيّ من المخطوطات الإباضيّة بجنوب شرق إفريقيّة على الفضاء الجبليّ الممتدّ قبلة قابس والمحدّد تاريخيّا بجبل دمّر، ونتابع من خلال الخارطة الثقافيّة لهذه المخطوطة دراسة خصائص نظام الحلقة العزّابيّة الدّوّارة لشيوخ الإباضيّة حتّى القرن الهجري الثامن مختلف ألوان التعلّم والتّعليم، ونؤوّل بذلك مجمل أشكال التّديّن الحاصلة لهذه الجماعات بين المرعى والحقل والغار والجامع، في فضاء جبليّ منفتح على سهل متقدّم وصحراء خلفيّة.

وقد ركّزنا على تبيّن دور تنظيمات"تغيميت" في حفظ الجماعات المتبدّية من التوحّش، وفي حفظ نظام العزّابة الإباضيّ من التلاشي، وفي حفظ العلم من الاندثار توطيدا للكتابة وفعل الكتاب بحيّز جبل دمّر، وانتهينا من ذلك إلى تلمّس ملامح العمق الثّقافيّ للسّلوك الدّينيّ لدى ساكنة المجال باعتباره سلوك الانقطاع للعمل في الحقل والانقطاع للعلم في الحلقة. وذاك روح نظام العزّابة وأصله تعلّما عمليّا للحياة.

الكلمات المفتاحية: تغيميّت، العزّابة، الإباضيّة، الحلقة الدوّارة، التّديّن، التّثاقف

* المؤلف المرسل.

Abstract:

In this article, we download a heritage text from Ibadhia manuscripts in Southeast Africa on the mountainous space extending before Gabes and which is historically defined by Jebal Demmer, and we follow through the cultural map of this manuscript the study of the characteristics of the rotating bachelor circle system of the Abadhia sheikhs up to the eighth century AH, and the various types of learning and education, Thus, all the forms of religiosity occurring for these groups between pasture, field, cave and mosque, in a mountainous space open to an advanced plain and a desert background.

We have focused on identifying the role of "Teguemit" organizations in preserving the groups that arise from savagery, in preserving the Ibadhia “Azzaba” system from vanishing, and on preserving knowledge from extinction in order to consolidate writing and the book's action in the area of Jebal Demmer. As the discontinuation behavior of work in the field and discontinuity of science in the loop. And that is the spirit of the “AZZABA” system and its origin is a practical learning of life.

Keywords: Tighimit. Azzaba. Ibadism, Revolving circles, Religiosity, Acculturation

مقدمة:

أنجب جبل دمّر الكتبة والمدوّنين انطلاقا من أبي عمران موسى الدمري(ق5ه/11م) وصولا إلى أبي القاسم البرّادي(ق9ه/15م)، ولم يبق أحد منهم جميعا شيئا عن سير علماء هذا الجبل، لقد استقرّ الجبل بعلمائه وقبائله في المدونات التّاريخيّة فضاءً للتمرّد والمنعة، ولم تكشف حقيقة الفعل الثّقافي في عمقه تطوّرا كتابيّا يصل بالتّدين مرحلة الخصوصيّة، ويقيم التّعبّد على عمق التّجربة الفرديّة، إلاّ المخطوطات الإباضيّة.

لقد ظلّ جلّ التّراث الإباضيّ مخطوطا حتّى منتصف القرن العشرين، ولم يعرف طريقه إلى التّحقيق والنّشر إلاّ خلال ثمانينات القرن الماضي، ومنذ ذلك الزّمن حتّى اليوم ظهرت جملة مخطوطات

خصوصيّة اجتهد الباحثون الأكاديميون في توثيقها وتدقيقها وتحقيقها لنشرها والإفادة منها ضمن دراسة مسار تطوّر الممارسات التعبديّة للجماعات الإباضيّة المنعزلة كما في جبل دمّر.

لكن إذا ما لم يترك أبو عمران موسى الدّمري عن جبل نشأته أثرا يحدّد ملامح الحياة الثّقافيّة الّتي كوّنته فإنّ البرّادي قد تدارك الأمر وهو يجيب بعض سائليه من بلاد أربغ منتصف القرن التّاسع، فحدّث عن جدّه أبي يحي زكرياء البرّادي المكنّى ب"**ابن حباسة**" ما كان سببا في بيان تنظيمات جمع الصدقات ونشر الدّعوة وحفظ المجتمع البدوي نصف الرّاحل. وفي غضون ذلك تكاثفت الإشارات إلى أشكال تعبّد في فضاءات مفتوحة بين المرعى والحقل وبين البيدر والجسر، وفي الواحة والقصر.

لقد حرصنا ونحن نقف على هذه المخطوطة المعنونة ب"تغيميت" أن نولي تحليل دلالات المصطلح مكانة مركزيّة بعد تقديم المخطوطة وأن ندرس مظاهر الانتقال والتبدّل في الممارسة التّعبديّة العمليّة عندما يقترن التّديّن بالفلح، وتُضفى القداسة على فضاءات الإنتاج، لنروم نهاية تأويل الوظائف والأبعاد في قراءة جملة الرّموز والدّلالات المتّصلة بطرق نظام العزّابة وحلقاته الجوّالة في التّحكّم في المجال وتثبيت ثقافة استقرار متوازنة تكلأ في المراعي ربيعا وتخزّن في القصور صيفا وتجني التّمور خريفا لتحفظ العلم وتدوّن المتون شتاء. وتلك دورة اكتمال وانتقال تقيم طقوس التّعبّد على التّكرار وتحوّل طقوس الإنتاج ضروبا من آليات القناعة والزّهادة تأمينا للبقاء والاستمرار..

1. تقديم المخطوطة

نقل الشيخ سالم بن يعقوب أثناء إقامته بالقاهرة عن مخطوطات الإباضيّة بوكالة الجاموس صفحات من ردود البرّادي ومراسلاته وقد استوقفه مصلح **تغيميّت** فمال إلى نقل رسالته تامّة. وقد جعلها بخطّه على كرّاس مدرسيّ متوسّط الحجم فكانت في الجملة أربع صفحات وهي الممتدّة بصفحات كرّاسه المحفوظ بمكتبته العائليّة من صفحة 27 إلى صفحة 30. وقد بدا معدّل الأسطر في حدود26 سطرا للصّفحة الواحدة واستقرّ معدّل الكلمات بالسّطر في 12 كلمة عموما. كتبت الوثيقة بخطّ نسخيّ معربيّ مقروء واضح الرّسم قليل الأخطاء

1.1. بيان فصولها .

تدور مشاغل المخطوطة ككلّ نصوص الفقه الإباضيّ حول المسائل الاجتماعيّة المثارة ضمن حركيّة العمران البشريّ ببلاد المغرب، وقد افتتحت بـ"سؤال حول حكم العبيد"، وتوسّطت بسؤال حول "وجوب اتّباع نصّ الواقف في الأوقاف" (البرادي) لتختم بـ" المسألة الثّالثة في نخيل المسجد" (البرادي، رسالة تيغيميت). لعلّ أوّل ما يلاحظ في انتظام المسائل الميل إلى مشاغل متعلّقة بالتّديّن سواء في فضاء

المسجد وعمارته أو في أوقاف طلاّب العلم بالمساجد وخارجها ضمن نظام العزّابة وما تعلّق بـ"**نصّ الواقف في الأوقاف**" باعتبارها عرفا ساريا يتّخذ بالتّقادم صفة الإلزام في الانتظام والقبول الجماعيّ المستساغ لجواز المصلحة وجريان المنفعة. مثل هذا الوعي الدّينيّ بالتّرابط بين الوقف نظاما اقتصادًا والمسجد مؤسّسة تعبّديّة دينيّة هو ما يفسّر سرّ إعراض النّاسخ عن نقل جوابات سؤال العبيد بقوله " **ولما كان السّؤال في حكم العبيد وما يتعلّق به ضربنا عنه**" (البرادي، رسالة تيغيميت)

2.1. تغيمّيت القسم المركزيّ في المخطوطة:

يبدأ الحديث عن **تغيمّيت** منذ الورقة الأولى ويستمرّ حتّى الورقة الرّابعة وقد مهّد له بالسّؤال في إشارة النّاسخ إلى سياق إنتاج الرّسالة جوابا عن مسألة أهل بلاد أريغ، فقد بعث"**الشيخ إبراهيم بن عبدالله بن يوسف الزادين**ي" إلى الشيخ الدمّريّ "**أبو القاسم بن إبراهيم بن سليمان بن إبراهيم بن أبي عمران البرّادي**" جملة من الأسئلة في حكم العبيد وما يتعلّق بهم وأردفه بـ"**سؤال آخر في وجوب اتّباع نصّ الواقف في الأوقاف**" فكان جواب البرّادي مدبّجا باحترام بركة أهل العلم في أريغ سيما والباعث" **الشيخ سليمان هذا من أحفاد الإمام أبي عبد الله محمد ابن بكر المشهور**"، لذلك أثنى البرّادي على سلالة أهله بقوله" **غصن الشجرة المورقة الأفنان السلالة البكرية المباركة الصفوة المحمديّة الفقيه الزاهد الورع السخيّ الشيخ سليمان رزقنا الله بركته وبركة أسلافه**".

لا يخفي هذا الثّناء الارتباط والارتباك، أمّا الارتباط فصريح في الانتماء المذهبيّ لقول البرّادي ممهّدا"**من محبّكم وأخيكم أخوّة الدّين والإسلام والمذهب أبي القاسم بن إبراهيم البرّادي لطف الله به السلام عليكم يشملكم وجميع أهل المجلس والإخوان ورحمة الله وبركاته**" فالشيخان منشدّان إلى أصول نظام العزّابة فيما وضعه جدّ الشّيخ السّائل، وأمّا الارتباك فكيف يسأل وريث العلم عن مؤسّس العزّابة في أريغ طالب العلوم في جبل دمّر؟ أليس أحرى بأهل الوادي وواحاته أن يشعّوا بالمذهب أمّ أنّ جبل دمّر قد حصّن علوم الكتب وعقول العارفين حتّى صارت مقصد العلماء وملجأ الإفتاء؟

يبدأ من هذا التّوجيه التّنبيه إلى حضور جبل دمّر مركزا دينيّا ومحجّة فكريّة ومرجعيّة علميّة للمذهب الإباضيّ أواخر العصر الوسيط. ومثل هذه المكانة ستحوّل نظام تغيميت تدريجيّا إلى شكل من التّديّن المفتوح في فضاءاته والمتنوّع في ممارساته بتنوّع الأمكنة كما سنتبيّن ذلك من خلال تحليل فصول الوثيقة.

3.1. في دلالة تغيميت:

يورد النّاسخ سالم بن يعقوب ضمن هامش الورقة الأولى ما يلي:" **معنى تغيميت: تغيميت هم جماعة العزّابة وطلبتهم القائمون بأمور المسلمين الحافظون للدّين والأخلاق السّائرون في النّاس بالعدل والسّيرة الحسنة**" (البرادي، رسالة تيغيميت) أمّا العودة إلى المعاجم الأمازيغيّة فقد أوقفتنا عند التفسيرات التّالية: "**العشب أوّل ما ينبت: تيمّغيت، ج، تيمْغيين...العشب الزّكيّ الرّائحة: تاموجّوت، ج، تيميجّا**" (محمد) واستوقفنا هذا المعنى بقوله "**العرف : الرائحة الطيّبة: توجّوت،ج، توجّوتين**" (محمد، المعجم العربي الأمازيغي، الجزء 2) ثمّ يورد"**تيميّجّا: وهو نوع من النّعناع البرّي**" (محمد، المعجم العربي الأمازيغي، الجزء 2) ويذكر أنّ "**العفاف: تامقينت**" (محمد، المعجم العربي الأمازيغي، الجزء 2) ثمّ يبرز أنّ" **النّسك: تيكرّمت، تيّورمت**" (محمد، المعجم العربي الأمازيغي، الجزء 1).

تُبدل بداية الغين والجيم والقاف والكاف في المتداول الأمازيغيّ للّفظة بعضها بعضا، ويتمّ إضافة النّون حرفا مائعا في لسانيات التّواصل الشّفويّ الأمازيغيّ، وتتبادل الغين والميم المواقع فتبدو تغيميّت وتمغيت واحدة لا تختلف دلالاتها، ومن جانب لسانيّ ثالث تظهر تاوجوت وتاموجوت مولّدة بدورها صوتيّا لتيمجا أو تيجما. كلّ ذلك يثبت أنّ اللّسان الأمازيغيّ في تنوّع لهجاته قد دار حول تلازم الميم والغين إذا اعتبرنا التاء السّابقة تعريفا والتّاء اللاّحقة تأنيثا، لنحصل على دلالة متّصلة ب"ميغي أو غيمي" في الأصل الصّوتيّ للكلمة.

يظهر التّحليل اللّسانيّ السّابق أنّ كلّ هذه الأسماء صفات تدور على معاني الطّيبة والفواحة والصّلاح وتبدل فيها أربعة حروف بعضها البعض، القاف والكاف والجيم والغين، وإذا اعتبرنا انحرافات الصّوت الحاصلة في موقع الميم أمكن إدراج تغيميت ضمن تيمغيت وتاموجوت في نفس الحقل الدّلالي لتصبح جميعها استعارة لصفات الطّبيعة المعطاءة في تقديم صورة جماعة العزّابة الخدومة وتقديس منزلتها. يبدو أنّ الشيخ سالم بن يعقوب قد قصد هذا الاصطلاح بالذّات وخصّه متّكئا على دلالات النّصّ وتنظيماته. لكنّه لم يطل البحث كثيرا في الأصول اللّسانيّة للعبارة وتطوّر دلالاتها من الرّائحة الزكيّة إلى العفّة والنّسك. ومن عفّت عن الدّنايا نفسه عزّابيا كما يعرّفه الدّرجيني[†] كان زكيّا ناسكا تُوقف في حقّه الأوقاف وتصرف في النّفقة عليه الصّدقات والمبرّات تبرّكا بصلاحه وفلاحه.

[†] نظام العزّابة هو هيأة دينية تتأسس في كل مدينة أو قرية من قرى الأباضيّة، تتخذ من المسجد مقرًّا لها، عُرفت في الماضي باسم حلقة أو مجلس العزّابة، تأسست في وادي مزاب لتعوّض قيادة الأمة أو المجتمع بعد سقوط الدولة الرستمية في تهرت، ونزوح فلول الأباضيّة إلى الجنوب الجزائري، سدراتة ووارجلان ووادي مزاب..ولحلقة العزابة نظام وتقاليد ومنهج خاص يسير

من جانب ثان فإنّ "**الغابة بصفة عامّة هي تاقّانت/تاكانّت جمعها تقّانين والغابة الكثّة الملتفّة تيزيّقي جمعها تيزّقوا أو تيزكوا**" (محمد، المعجم العربي الأمازيغي، الجزء 2) وبإبدال الزاي غينا والكاف ميما نحصل على تغيميت أو تجيميت (تاكامت= تيغيميت تجيميت) وليس الأمر بغريب في التّطوّر اللّهجي للّسان البربري ضمن الشلحة المحلية بالجنوب الشرقي التّونسيّ.

وممّا يثبت ذلك انتشار اللّفظة بنفس دلالاتها في الدّارجة النفوسيّة، إذ لمّا انقسم أهل نفوسة, بداية القرن الهجري الثالث, إلى فريقين متحاربين؛ الخلفية؛ أنصار خلف بن السمح, والرستمية؛ أنصار الإمام عبدالوهاب الرستمي, وحدثت معركة فاصلة بينهما خريف211هـ/826م . انتصر فيها عامل الرستميين الشهير أبوعبيدة الجناوني, "**أتاه عدد من المنهزمين تائبين, فقبل توبتهم, إلا من أتى الأمر عن عمد, وكان منهم المنيب بن اسماعيل بن درار التناوتي الغدامسي ويوسف بن سادين الفرسطائي, الّذي خاطبه قائلا :"تبت يا أباعبيدة, فقال له: إن لم يسدد باب التوبة بعد يا ابن تجميت**" (الشماخي)*, وتلك كناية من أبي عبيدة؛ أبدل فيها فرسطا بتجيمت/الغابة في صيغة التّصغير تأنيبا لابن سادين الفرسطائي, الّذي تحاشى أبوزكرياء (الشماغي),عن قصد, ذكره اسما, مع أنه من أعلام نفوسة, ورفيقا للمنيب التّناوتي؛ ابن أحد حملة العلم الخمسة. فدلالة التغميث أو تقميت او تجميت على الغابة واتساع المجال أمر سائد في اللّسان الأمازيغي.

ومن جانب ثالث أورد دي ماتلونسكي(A . DE Motylinski) في كتابه المخصّص للدّارجة البربريّة الغدامسيّة ما يلي"**تغمينت: Agrafe ou Broche** '(A . DE Motylinski) وهي عبارة دالّة بالترجمان إلى العربيّة على المشبّك. وإذا ما أضيفت دلالة المشبّك إلى دلالة الرّائحة الفوّاحة ودلالة العفّة ودلالة الغابة صار اللّسان الأمازيغيّ مؤسّسا لنفس ما اعتمده نظام العزّابة من توظيف الطّيبة الخُلقيّة في توليف

عليه، تعرف في المراجع ولدى المجتمع المزابي بـ: "سِيَرِ العزَّابة " وهي ما يعبَّر عنها حديثا بالنظام الداخلي، وعلى أساسه توزَّع المسؤوليات بين أعضائه..أمَّا ما تعنيه كلمة العزابة، فيقول عنها الأستاذ صالح بن عمر سماوي ما يلي: " تجمع المراجع المعاصرة تقريبا على أنَّ معنى العزابة يعني العزوب عن الدنيا ومظاهرها البراقة وملذاتها والانصراف لخدمة المذهب الإباضي والمجتمع الإباضي والدعوة إلى الصلاح وتوجيه الناس وإرشادهم إلى الدين الإسلامي وما فيه المصلحة الجماعية، وينتظمون في هيئة دينية تكوّن مجلسا أو حلقة يعبَّر عنها عرفا: "العزَّابة ".تأسّس هذا النّظام سنة409هجري بآجل ومن قبل أبي عبدالله محمّد بن بكر الفرسطائي(ت440هـ)

*تجيمت هي الغابة في الأمازيغية

الجماعات البشريّة وتشبيك علاقات مجتمع الشّتات وجماعات التّناثر في المكان عند غياب السّلطان الموحّد.

لقد كانت مخطوطة البرّادي كاشفة بوضوح عند هذه الوظيفة السّياسيّة لتغيمّيت بإضافة النّاسخ عند قوله"**وكذلك اعتبره (**أبو عبدالله محمد بن بكر الفرسطائيّ) **الإباضيّة في سائر نواحيهم مع تفرّقها إماما بعد سقوط الإمامة بني رستم عام296 ه فهو الّذي يولي القضاء وينصّب الحكّام من علماء الإباضيّة في سائر أمكنتهم وتوجّه الشّكوى منهم إليه فيعزل بعد ثبوت ما نسب إليه ومحاسبته وقد توفّي أبو عبدالله محمد بن بكر سنة440ه رجعنا إلى جواب البرّادي**" (البرادي، رسالة تيغيميت)

ليس مهمّا أن تكون الإضافة من الشيخ سالم بن يعقوب أو من النّاسخ السّابق لكنّ الأهمّ أن تؤسّس تنظيمات تغيمّيت جامعة بين القيادة السّياسيّة لدولة الكتمان، والتّأثير الرّوحيّ لجماعة العزّابة، فعندها بالذّات ستنشأ أشكال تديّن منتظمة في ضروب من الطّقوس والعلاقات بين الجماعات، وضمن فضاءات مفتوحة تجمعها الغابة، أشكال تديّن تتحوّل عن النّشاط الفلاحي الإنتاجي إلى النّشاط التعبّدي التبتّلي، وتنشأ لذلك أنواع من التّصانيف والتّرتيبات تكشف المخطوطة وجوها منها وتشير إلى جوانب أعمق تكمّلها أخبار السّير الإباضيّة حول الأعلام من الشّيوخ والتلامذة.

تغيميّت نهاية هي تنظيمات تواصل اجتماعيّ سياسيّ لحكم محلّي تشبيكيّ مؤسّس على الفعل الثّقافيّ ومختزل في دلالاته الأمازيغيّة عند معاني الطّيبة والعفاف والغابة، ليجسّد عمليّا في جماعة أهل الصّلاح والفلاح عند الإباضيّة شيوخا وتلامذة ينتقلون بحلقتهم الدوّارة فيجمعون في الحيّز المحدود الصّدقات ويتصرّفون في أوقاف المساجد وزكاة المحاصيل، ويصرفون ذلك في الشّؤون العلميّة للمجلس العزّابيّ والشّؤون العمليّة للمجتمع الإباضيّ القرويّ بين مراكز إنتاجه الفلاحيّ حراثة ورعيا وغراسة وسقيا.

2. مواطن الأباضية في جبل دمر :

لكلّ مجال أباضيّ كما تورد المخطوطة تغيميته المخصّصة في مسار دائريّ محدّد، وقد أجمل البرّادي الحديث عن تغيميت أربع واضع التنظيمات الأصليّة، وأوجز القول في تغيميت جربة وتغيميت نفوسة، أمّا تغيميت جبل دمّر فقد فصّل ذكره وبيّن مراحله ومواطنه بدقّة وتنسيق.

1.2. زنزفة وتونين أوالقسم الشمالي من جبل دمّر:

قد يعود هذا التفصيل إلى انتماء الكاتب ومشاركته في إحياء آخر تنظيمات تغيميت مع سلفه أبي يحيى زكرياء البرّادي المكنّى ب"**ابن حباسة**" فإليه يعود سند الرّواية "**حدّثني ثقة عن الشيخ أبي زكرياء البرادي النّسب المغزاوي الدّار المعروف بابن حباسة رحمه الله وهو آخر من تمسّك وحافظ على سير أهل الدّعوة ولم تفته سيرة من سيرهم في عصر من الأعصار الماضية**"، ومنه يستمدّ تفصيل مكونات هذا التنظيم ليثبت استمراره حتّى منتصف القرن الهجري التّاسع مشعّا حاضنا للفضاء المحيط بجبل دمّر. ومن شأن هذا الاستمرار أن يرشّح جبل دمّر مجالا مميّزا بين مجالات أحواز أباضيّة متبقّية بشهادة البرّادي نفسه في قوله ممهّدا" **وهو ما أدركتم آثارها وسمعتم في أريغ وجبال بني دمّر-جبال الحوايا** (بن يعقوب)- **وفي جزيرة جربة وفي ابدلان وجبل نفوسة العامر بهذه السّيرة النيّرة و إلى هلمّ جرّا**". وإذا ما حرص النّاسخ الشيخ سالم بن يعقوب على اعتراض تفسيريّ حدّ بني دمّر في جبال الحوايا فإنّ البرّادي داخل المخطوط سيبرز جبال دمّر أوسع من مواطن استيطان بني دمّر، وهو ما يجعل الجبل مشتملا على تونين وزنزفة شمالا وعلى وادي زنداق ومضارب بني قطوفة وبني زيري وبني زنداج وبني واسين جنوبا إلى جانب ما يعرف اليوم بدمّر /جبل الحوايا وغمراسن. وهذا ما ينطبق مع نفس تحديد ابن سعيد في قوله عن مجال مدينة قابس" **ويمتد منها الجبل الكبير مشرقا ومغربا وهو في جنوبها فيضرب في جهتها بجبل دمّر وفي جهة قفصة بجبل الأوراس وفي جهة القيروان بجبل وسلات وهو خصيب بجميع هذه الأماكن تجبى منه أموال السلطة** (ابن سعيد ، 1970). وقد حدّه بشكل أدقّ ابن خلدون فجعله كامل الجبل الممتدّ قبلة قابس حتّى جبل نفوسة بقوله" **واعلم أن في قبلة قابس وطرابلس جبالاً متصلاً بعضها ببعض من المغرب إلى المشرق، فأولها من جانب الغرب جبل دمر يسكنه أمم من لواتة ويتصلون في بسيطه إلى فاس وصفاقس من جانب الغرب، وأمم أخرى من نفوسة من جانب الشرق. وفي طوله سبع مراحل، ويتصل به شرقاً جبل نفوسة**" (ابن خلدون).

2.2 بنو زنداج بنو تقطوفت بنو واسين القسم الجنوبي من جبل دمّر:

ليس غريبا أن يكون الجبل الممتد قبلة قابس عند ابن خلدون،والرابط اليوم بين جبل مطماطة شمالا وجبل دمر/الحوايا وسطا والجبل الأبيض جنوبا، هو نفس الجبل المتحدّث عنه من قبل البرّادي فقد تعاصر الكاتبان وكانت الجغرافيا البشريّة تشير إلى وحدة مجاليّة تحت مسمّى بني دمّر قبل أن يصبح الجبل ثلاثة شلوّات وزّعها التّقسيم الجغرافي الإداري لتفكيك هذه الوحدة وتفتيت نظام تغيميت الجامع بينها، وهو ما لم يتحقّق إلاّ في العصور الحديثة عندما "**حاول علي باشا باي في إطار صده للمذهب الأباضي بناء المدارس على خط يحول بين الجنوب وبقية مناطق البلاد على خط يحشر كل الذين**

يقعون جنوب جمنة (الصحراء) من ولاية قبلي حاليا ومطماطة (الجبال) من ولاية قابس وجربة (البحر) من ولاية مدنين مع بعث بعض " الصلحاء " إلى كلّ من قطوفة وقرماسة وغيرهما، وهذه بمثابة النّقاط المتقدمة التي بها يجس النبض أمام هذا الخطّ الّذي يمتد من بدايات الصحراء باتجاه الغرب من جنوب افريقية إلى البحر من الجنوب الشرقي مرورا بالجبل؟" (الثابتي ، 2016)

ولا يخفي الباحث علي الثّابتي تساؤله عن تحالف المالكيّة والشافعيّة في التحويل المذهبي لساكنة جبل رعاه نظام تغيميت طويلا، ليقول"**لكن كيف نفهم أيضا صدّ المذهب الأباضي بشيوخ مالكيين منهم من زاول تعليمه بمصر شافعيا - أشعريا وهو موسى الجمني مؤسس المدرسة الجمنية بمطماطة في إطار مذهب حنفي رسمي عثماني**"؟، وإنّما السرّ في رأينا هو استعادة جذوة تنظيمات تغيميت وتحويلها إلى جباية تشمل حتّى صدقات الزّيت باستقرار المدرسة الجمنيّة لسيدي موسى، وتوسّع الزّاوية وارتباطها بنفس مشروع إبراهيم الجمني في جربة: افتكاك المجال الأباضي وتفتيت تنظيمات تغيميت باختراقها.

ومع ذلك تظلّ وحدة جبل دمّر مرتبطة بالكيان الجغرافي الجبليّ المتماسك قبلة قابس وبالكيان الثّقافيّ المثبّت بتنظيمات تغيميت الإباضيّة ولمّا زالت هذه التنظيمات وانقطع التزاور والتّمدرس المنتقل واستبدل بمدرسة قارّة يأتي الطلاّب إلى شيوخها فتّتت الوحدة وصار الجبل أقساما انحسر خلالها دمّر في كاف مزنزن، وطمرت مدرسة تونين مكمن العزّابة،لتظهر مدرسة مطماطة سرّ التّحويل المذهبي وسبب التّعريب القسريّ.

3. تموين نظام العزابة بجبل دمر:

يستفيد نظام العزّابة من تنوّع الإنتاج الفلاحيّ بالفضاء المحيط بمدارسه ومؤسّساته، والحاضن لجماعاته من الطلبة والشيوخ. هذه الاستفادة هي الّتي سبّبت دورة جمع الصّدقات والوصايا والزّكاة وحرّكت الحلقة العزّابيّة الدوّارة. وإذا ما ظلّت هذه الدّورة مقتصرة ببلاد الجنوب الجزائريّ على رحلة الرّبيع نحو بني مصعب ورحلة الخريف نحو وادي أريغ، تنقّلا بين الشّاء والنّخل في عهد مؤسّس هذا النّظام أبي عبدالله محمّد بن بكر الفرسطائيّ، فإنّها في الفضاء الحاضن لأخلاف تلميذه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي قد صارت دورة خماسيّة المراحل تتوزّع في المجال المحيط بجبل دمّر ضمن فضائيه الحيويين: ظاهر المراعي حيث ثقافة الضرّع وجفارة الحقول موطن ثقافة الزّرع، انطلاقا من مدرسة تونين وعودة إليها كلّ شتاء. فمن تونين حيث الجامع والمدرسة والمصلّيات تبدأ رحلة تغيميت جمعا للرفد المؤمّن لاستمرار استدرار أوقاف التعليم، وتأمينا لاستمرار تأثير المذهب الإباضيّ على سلوك ساكنة المجال إلى زمن قريب من عهد البرّادي منتصف القرن الهجري التّاسع/الخامس عشر ميلاديّة.

1.3. الضّرع يؤمّن حاجيات نظام العزّابة بجبل دمّر:

تستهلّ هذه الرّحلة للحلقة الدوّارة بالاستفادة من منافع اللّبن مع بداية فصل الرّبيع وعند بني قطوفة حضرا وبدوا، ممّا يعني انتقال حلقة العزّابة حيث انتقل دوّار بني قطوفة في فضاء رعي لا يسعه إلاّ مجال منطقة الظّاهر، وهو أقرب ما يكون عندنا اليوم إلى خلفيّة جبل تطاوين المسمّى بالجبل الأبيض. هذا الانتقال مع المنتجعين من رعاة بني قطوفة وبين مضارب جماعاتهم في فضاء محاذ للجبل من الجهة الغربيّة منفتح على الصّحراء لهو ضرب من الارتباط بين القبيلة الراعية والجماعة الواعية يؤمن تنظيم تغيميت تشابك المصالح فيه: رعاة يهبون اللّحم واللّبن وتلامذة ينشرون العلم والدّين. ومن هناك تبدأ أشكال التديّن بالتّشكّل. وقد لاحظنا في دراستنا لأشكال التثاقف عند الإباضيّة ضمن أطروحتنا المهتمّة بسير الشيوخ والتلامذة أنّ اللّبن مذموم القرى خلال القرن الهجري الخامس في أخبار البخيل باكبت وأنّ الشّعير والتّين هما المنتجان المرغوبان حتّى ذلك الزّمان، وفسّرنا ذلك بنزوع غراسيّ لأهل الزّرع يقاوم ثقافة الرّعي عند أهل الضّرع.

لكنّ عوامل التّثاقف خلال زمن عودة التبدّي إلى الهيمنة على المجال الجنوبيّ من إفريقيّة بعبارة ابن خلدون قد جعلت العزّابة الإباضيّة يكيّفون أحكامهم ويليّنون مواقفهم من البدو وحياة البداوة حتّى صار تلامذة العزّابة "**في وقت الرّبيع يسكنون عندهم**(بنو كطوف) "**يدرسون ويذكرون ويتذاكرون ويتفقّدون الأحوال ...فيشربون عندهم اللّبن**". يصبح اللّبن بذلك حاميا لنظام العزّابة وتتحوّل الحلقة من أجل مخضة قربة(شكوة اللّبن)، حلقة تقتات من اللّبن وتستفيد من صدقات الرّعاة وزكاتهم وتؤمّن تنفيذ وصاياهم إذ"**يقصده المسلمون بمعروفهم من زكاة وصدقات ووصايا فيصرف ذلك في مصالح الطلبة ومهماتهم وإلى المستحقّين الحاضرين**".

ضمن هذا السياق من توزيع الصدقات وتنظيم الأوقاف يخرج اللبن منفردا باعتباره صدقة تصرف إلى العزّابة مباشرة، شرابا موهوبا وقرى بدويا يرسّخ عادة إكرام طلبة العلم بلبن القربة فيتشكّل التّديّن عندها من العلاقة الرّمزيّة بين قربة اللّبن ودواة الحبر،

2.3 الزّرع يؤمّن حاجيات نظام العزّابة بجبل دمّر:

توجّه خصوصيّة الإنتاج الفلاحي وتنوّع محاصيله وترتبها في الفصول ومواسم تحصيل صاباتها حركة انتقال الحلقة الدوّارة لنظام العزّابة بمجال جبل دمّر وأحوازه، فمع أوائل الصيف يحلّ موسم حصاد الحبوب و"**إذا قرب وقت حصاد الزرع انتقلوا إلى بني واسين وبني زنداج وأولاد زيري وهو في الحالة الأولى**" من أحوال البداوة المتّصلة بالانتجاع العائليّ لجمع المحاصيل. ينتقل نظام العزّابة إلى جملة

الحصّادة (تمزتورت) في مواطنهم غير البعيدة عن أحواز الجبل ضمن سهل الجفارة الجنوبيّة لأهل واد زنداق الواد الجامع للقبائل الثلاّث في قصور خزنها، لكنّ هذا الانتقال السّابق للحصاد سيجعل تلامذة العزّابة يد عمل تطوّعيّة مساعدة خاصّة في تأمين حصاد حقول شيوخهم من هذه القبائل أو شركائها، وأخبار حصد العزّابة لزرع شيوخهم متواترة في نصوص السّير، كما سيحرص العزّابة على مساعدة العائلات الرّاعية في جمع المحاصيل ودرسها وخزنها وعندها سيظهر تأثيرهم الثقافي إلى حدّ بعيد في توجيه طقوس الحصاد والدّرس والكيل، وبسببهم سيعرف استبدال النّصوص البربريّة الثّاوية بنصوص عربيّة مستلهمة من التسبيح الدّيني التوحيدي (رسالة ماجستير، إشراف لطفي دبّيش، كلية العوم الاجتماعيّة تونس2014، ص ص184-186.، 2014). هكذا تعقد أشكال التديّن خلال هذه المرحلة حول الشعيرة(تمزوت) بعد اللّبن وتؤسّس لشريعة العزّابة في توجيه جماعات الحقول والمزارع . تلتقي عندها عزّابتان عزّابة الفلح تحصد زرعها وعزّابة العلم تنشر علمها فتكون أشكال التديّن ضربا من التطويع للأفعال بالأقوال في تكامل الشّريعة والشّعيرة

لمّا كانت مواسم الإنتاج الفلاحي موجّهة لحركة العزّابة في الفضاء المحيط بجبل دمّر كان محكوما على نظام تغيميت بالترحال المجالي الموسمي ليترك فضاء الضرع وفضاء الزرع الواسعين منتصف فصل الصّيف ويأوي إلى الجبل فضاء التّين والأعناب.

يخرج البرادي في وصف هذا الانتقال عن التحديد القبلي إلى التحديد الجغرافي ، ذاك أنّ مضارب القبائل المضيّفة لنظام العزّابة منتقلة مختلفة بين فضائي الجفارة والظاهرة في رحلة موسمية ضرعها بالصحراء وزرعها بالسهل، ويحتّم ذلك انتقال القطعان وتحوّل مواطن الحراثة ولو بالإعارة شمال الجبل عند منطقة السّقي من بلاد الحامّة.

أمّا خلال مرحلة الصّيف فإنّ التحديد الجغرافيّ سينحصر ضمن"جبال بني دمّر"، لم يختف ذكر الأقوام فبنو دمّر بدورهم قوم ولكن برز الجبل الفضاء الأنسب للوقاية من حرّ الصّيف ضمن العشوش والغيران. وجبل دمّر في منطوق النّصّ محدّد بين غمراسن وتوجان اليوم ويشير إلى ذلك الشيخ سالم بن يعقوب ويسمّيه بجبل الحوايا حتّى قبل أن توجد به جماعات الحوايا نفسها سليلة جماعات الخزور الحلف الأقدم بشمال بلاد ورغمّة.

هذا الانتقال مبرّر بنضج الثمار والغلال" **فإذا قارب إبّان الغلّة والفواكه والتّين والعب انتقلوا إلى جبال بني دمّر**". ترد تسمية المكان في صيغة الجمع "**جبال بني دمّر**" ممّا يحيل على سعة المجال بتعدّد الأودية والشّعاب الرّافدة لها وأهمّها الإثنى عشر واديا التالية: هي من الجنوب إلى الشمال واد غمراسن،

واد كحيل، واد قراقر، واد الخيل، واد زغاية، واد بن خشب، واد أرنيان، واد الحلوف الجفاري، واد الحلوف الظاهري، واد مقّر، واد منزلة مقر، واد قويبس(النقب). في مجاري هذه الأودية وحوالها توزعت شعاب هي الأنسب لغراسة التّين والاستفادة منه ذخر الشّتاء وغذاء الصّيف في المنظومة الغذائيّة المحليّة (الهاشمي و دغسن، 2020) ورغم قيمة العنب والغلال من لوز وخوخ وتفّاح فإنّ مكانة التين تظلّ مركزيّة لما يوفّره من غذاء يوميّ لحلقة العزّابة ، ولما يؤمّنه من تخزين سنويّ مصاحب لطلبة العلم يسهّل الحفظ ويساعد على الاستظهار فينمّي الذاّكرة والذّكاء بما يعرف اليوم من أغذية صناعات الغربوز تينا مجفّفا . إنّ مدار أشكال التديّن خلال هذه المرحلة مرتبط برمزيّة الغربوز والقرطاس

تبحث دورة تغيميت في نظام العزّابة عن اكتمالها فتقترب من نقطة انطلاقها وتعود"**إذا انقضى ذلك ودنا وقت الرّطب والبسر والتّمر**" فإذا انقضت دورة التين بجبل دمّر بدأ موسم البسر والرّطب في أحواز مارث وعند جبلها المسمّى بجبل زنزفة في تصحيف نقله الشيخ سالم بن يعقوب بقوله"**انتقلوا إلى جبل تنزفا**" فبين بني زنزفت يستقرّ العزّابة خريفا يجمعون الصّدقات ويراجعون القرآن ويحبّرون السّير فهناك قرب موطن الانطلاق تونين تتشكّل رمزيّة دينيّة تجمع الحبر والبسر وتشكّل تديّن أهل الرّطب .

لا تتم العودة إلى نقطة الانطلاق إلاّ خلال فصل الشتاء، ولا انتقال لجمع الزيتون ممّا يعني أنّ غراسته في هذا المجال محدودة ومؤمنة عائليا ولا تقع تحت طائلة الصّدقات، لذلك لم يستطع العزّابة المشاركة في تجميعه وتنظيم توزيعه فلم تشمله تدبيرات تغيميت.

لقد ظهر العزّابة بكلّ هذا النظام وتحت رعاية مؤسسة تغيميت مدرسة جوّالة تمارس التّعلّم من أجل الحياة، وتجري لتلاميذها تدريبات على الرّعي والحصاد، وعلى العناية بالتّين وتنظيف بالنّخل، ولهم بذلك تأثير كبير في إنتاج سياقات الإنتاج الرّمزي المصاحب للإنتاج الفلاحيّ في هذه الأوساط الشّعبيّة، فأكسبوها ألوانا من التّعبير الثّقافي جعلتها أشكال تديّن مميّزة.

يعود العزّابة من تغيميت بصدقات الدّهان والشّعير والغربوز والتّمر وقد جمّعت جميعها ذخر الشّتاء مخزونا سنويّا رافدا للعزّابة قبل إشراقة اللّبن من بني كطوفة فله تمر مخزّن وغربوز مؤمّن. يعودون في نفس الوقت، وقد رسّخوا بين الجماعات الحامية والحاضنة لهم، ألوانا من السلوك الدّينيّ جعلت التّديّن في الفضاءات المفتوحة مرتبطا بالإنتاج الفلاحيّ وحوّلت ممارستي التّجميع والأكل أشكال تديّن مثيرة تعلّقت بالمستهلك الغذائيّ الرّئيسيّ في المجال الإنتاجي المحدّد، وذاك ما سنبحثه في العناوين الفرعيّة ضمن الفصل الموالي.

4. الدلالات الثّقافيّة لتديّن أهل تغيمّيت في التّراث الأباضي:

تشدّ تنظيمات تغيميت عبر الحلقة الدوّارة شتات المجتمع الإباضيّ بالأحواز المكانيّة إلى بعضها البعض ويشتهر في ذلك شيوخ العزّابة بدورهم في حماية هذه الجماعات من جور الجباية إن بحسن المفاوضة، أو بإقناع الجماعات أن تؤدّي ما عليها تخفيفا لضغوط المحزن الجابي، وما حادثة محمد جمال المديوني مع مزاتة ببعيدة حين حاول إقناعهم بضرورة الدّفع تسريعا لرحيل المحلّة إذ" **ذكر أن عاملا خرج على عشيرة أبي محمد من قبل السلطان فكان هذا العامل يماكسهم، ويشدد عليهم فلما كان يوما من الأيام قال لهم العامل: إن أعطيتموني اليوم كذا وكذا مضيت عنكم، وإن بت الليلة ضاعفت عليكم وكلما بت ضاعفت قيل فلم يدفعوا له شيئاً ولم يعبأوا بقوله، فكان يضاعف عليهم فلما رأى أبو محمد العامل يضاعف عليهم الغرامة كل ليلة، ورأى قومه غير مكترثين به حماقة، وخرقا لا قدرة وعزا، قال للعامل وخدامه: قفوا على ترع الأحياء ولا تتركوا مالهم يسرح، فلما رأى أصحاب الأموال ماشيتهم يأكل بعضها بعضا جوعا، أدوا إلى العامل ما لزمهم، وانصرف فجعل جهالهم يطعنون في الشيخ، ويعيبون فعله، حتى قال قائلهم: ما هذا إلا معونة الظلمة الفجار على الضعفاء والمساكين، فقال لهم أبو محمد: لله على العالم أن ينظر للجاهل ويدله على ما فيه سلامة دينه ودنياه**" (أحمد الدّرجيني).

إنّ مهمّة تغيميت بشيوخها وتلاميذها لتغدو حمائيّة للجماعات الإباضيّة أن يزداد تشتّها وأن ينالها من عسف المخزن ما ينهي وجودها، فكان الاستعداد الدّائم لحمايتها بالمرافقة وتوجيهها باللّين، من أجل ذلك تحرّكت الحلقة الدوّرة في تغيميت ضمن مجالها الموسّع وصارت ممثّلة لأهل الاستشارة الدّينيّة المسمّاة بين قبائل الجنوب التّونسي الأقرب إلى التبدّي ب"أهل الرّجوع للّه".

من هذا المنطلق الحمائيّ الإحيائيّ يمكن أن نقف على دلالات مميّزة لتنظيمات تغيميت تعلّقت بجوانبه المختلفة سنوردها تباعا وباختزال ضمن العناوين الفرعيّة التّالية:

1.4. دلالة الميقات بين الحساب الفلكي ودورة الفصول:

يستعمل البرّادي حسابين مختلفين في تحديد أزمنة الانتقال بين الفضاءات الاجتماعيّة والإنتاجيّة، حساب فلكيّ محدّد بقوله" **إذا طلع آخر الأسعدة وهو سعد الأخبية-هو نجم معروف- خرجت أهلي تغيميت من الجبل**" وحساب مناخيّ منوّع كقوله " **وإذا قرب وقت حصاد الزّرع ... وإذا قارب إبّان الغلّة والفواكه والتّين والعنب .... فإذا انقضى ذلك ودنا وقت الرّطب والبسر والتّمر**" والحسابان لا يتعارضان في ظاهر القول فالحساب الفلكي هو تحديد أدقّ لحساب الفصول، لكنّ المسحة الثّقافيّة في تسمية النّجوم بالأسعدة، وفي حساب الفصول بالتّنجيم تحيل مباشرة على التنجيم وعلم

النّجوم وتبيّن توارث التنجيم الفارسيّ في ثقافة متعلّمي الإباضيّة وتوظيفه ضمن مسارات الانحسار والانتشار. ففي الجبل يتمّ الكمون شتاء كاملا، حتّى إذا قارب وقت الرّبيع كان الانتشار بين الفضاءات الإنتاجيّة وهو ما تذكره السّير الإباضيّة بالخروج إلى الجشر **فقد"ذُكر أنّ ياكرين وداود بن ياجرين طلعا إلى الجشر أيّام الرّبيع"** (الوسياني) و**"ذكر عنه(أبو عبدالله محمّد بن بكر) أنّه إذا قيل له:أخرج العزّاب إلى الخصب والجشر(نبات الرّبيع) فيقول لهم:أهؤلاء كانوا في الخصب أم نحن؟"** (الوسياني).

يبدو أنّ عبارات الخصب التي قصدها الشيخ المؤسّس معنويّا في العقول هي التي وجّهت عناية العزّابة وحلقتهم بمنتجات المراعي والحقول فصار الميقات الدّاخليّ للانتقالات مرتبطا بتبدّلات مناخيّة توفّر منتوجات متنوّعة وتعلن عن الانتقال الفصلي ف**""الربيع يبدأ في 16 فيفري ويستهلّ الصيف في 17 ماي،ويبدأ الخريف في 17 أوت وينطلق الشتاء في 16 نوفمبر"**. (HMENOUILLARD, 1910) وكلّ ابتداء لفصل في هذه المناطق شبه الجافّة إنّما يؤشّر إليه بنضج نوع مخصّص من الغلال والثّمار والمحاصيل الفلاحيّة لذلك يمكن اعتبار دورة نظام تغيميت هي دورة السّنة الفلاحيّة كما رصدها الباحث الفرنسي همينويلار (HMENOUILLARD)بداية القرن العشرين . إنّ حساب تنظيمات تغيميت نهاية هو حساب مزج بين معارف العالمين المتعلّمين عن الكتب ومعارف العاملين المتنقّلين في تعاملهم مع الأنواء، ومن هنالك تكوّنت لدى العزّابة خبرتان: خبرة بعلم التنجيم توارثوا دراستها في ما يسمّونه الحساب، وخبرة بعلم المناخ تعلّموا التكيّف معها من تنقّلاتهم بين الأحياء. فهل هو صوت الثقافة العالمة أم صوت الثّقافة الشّعبيّة؟

2.4 الدّوائر المكانيّة لمدرسة تونين وتنوّع الفضاءات الإباضيّة:

من فرية تونين قرية واحية منعزلة في جبال زنزفة قديما تبدأ رحلة السّنة بوعاء فارغ إلاّ من العلم والقرطاس والقلم، وإليها تنتهي بداية كلّ شتاء بأوعية ملأى دهانا وشعيرا وغربوزا وتمرا، فتونين المحجّة والمحلّة والحمى. لكنّها لا تكتسب قيمتها إلاّ من تفاعلاتها مع الدّوائر المكانيّة المحيطة بها. ترسل إليها طلبة العلم، ولا ترسلهم في كلّ اتّجاه فقد عمدت أن تتخذ طريقا جنوبيّا يبدأ بالأقصى ثمّ يقترب يبدأ من ظاهر بني كطوفت أقصى الجنوب الشرقي في صحراء تطاوين، ويقترب نحو جفارة تطاوين ثمّ يلتجئ إلى جبل دمّر ومنه ينحدر نحو جبال زنزفة المحيط الأقرب من عيون تونين. في مثل هذا الانتشار تتشكل دوائر أربع دائرة الظاهر أرض المرعى حيث تسمّن القطعان، ودائرة الجفارة أرض الحصاد حيث تجمّع الصّابة، ودائرة الجبل حيث تجمّع الفواكه وعلى رأسها التّين، ثمّ دائرة الوادي حيث تقطع أعذاق النّخل. ولن يغيب العزّابة في الحقول الأربعة عن العمل الميدانيّ، فإذا الدّوائر المكانيّة مخابر تعليم تخرّج العزّاب قادرا على العيش في منظومة البداوة متأقلما مع مناخاتها وحاجياتها، ومستعدّا لعيش الحضر يتعلّم بالمدرسة ما

يساعده في ذلك. إنّ الدّوائر المكانيّة لمدرسة تونين نهاية ليست سوى مجال إشعاع روحيّ يجلب الطلاّب ويقرّب المدرسة من البدو المرتحلين وهو يعكس الآية بأن يرحل أهل العلم لنشره بين الطلاّب، لا أن يرحل الطلاّب في طلب العلوم من مدرسة إلى مدرسة. إنّها فعلا مدرسة الحياة تنتشر بن الأحياء وترتحل بارتحالهم. وتلك تجربة بيداغوجيّة تربويّة تستحقّ أن تدرس اليوم بعمق للاستفادة منها في تطوير مناهجنا التّعليميّة زمن الرّقمنة والتشابك الرّقميّ.

3.4. -عزّابة أم طوالب؟:

يثار في انتقال المدرسة بين الأحياء معوّلة على صدقات السّاكنة في تموين نفقاتها سؤال مركزيّ تحرّج منه أبو محمد ويسلان وهو ينتقل بعزّابته من جربة إلى دمّر فيأمرهم بالرّجوع والنّاس في سنة قحط، هذا السؤال هو ألا يكون العزّابة في تنظيمات تغيميت قد تحوّلوا إلى طالبي مال جامعي جباية بأسلوب ليّن يستفيد من التّأثير الرّوحيّ للشّيوخ والتلامذة؟ ألا يكون العزّابة وقتها مذبذبين بين تمثيل سلطة روحيّة جامعة وتمثيل فئة اجتماعيّة مسحوقة تطلب أقواتها بأقلامها؟

يبدو الجواب عن هذا السّؤال من المسائل المسكوت عنها في المدوّنات الإباضيّة فجميعها تثبّت الوظيفة الدّعويّة للحلقة الدوّارة وقد اختزلها البرّادي في قوله متحدّثا عن تغيميت أريغ المرجع الّذي سنّه أبو عبد الله محمد بن بكر بقوله " **إذا دعا إبّان الرّبيع خرج بحلقته ومتّبعيه وكبار أصحابه إلى جبال بني مصعب وأحيائهم يدرس ويعظ ويذكر ويتفقّد الأحوال ويأمرون في جميع ذلك بالمعروف وينهون عن المنكر ويطيعون الله ورسوله**"، ولا سبيل إلى تفكيك الخلفيّة الاجتماعيّة لهذه الظّاهرة اليوم دون البحث في مخلّفاتها الثّقافيّة بنفس مجال انتشار أهالي تغيميت مدرسة تونين. لقد أعرضت تونين عن خلفيتها الجبليّة الغربيّة والشماليّة في جبل مطماطة و جبل مديونة، ولم تتقدّم نحو مجالها البحريّ وتصل جربة، فاختارت وجهة جنوبيّة إلى محيط وادي زنداق وبين جماعاته. فهل يكون ذلك سببا لانتقال توبونوميا تمولست وتونين إلى تسميات قرى المجال؟

هذا الاختيار سيُبحث عن سرّه في البقايا الثقافيّة المحوّرة عن عادات انتقال الجماعات الدوّراة به. وقد تخصّصت فيها جماعات انتشرت في هذا المجال دون سواه من المجالات. ففي نفس مجال انتشار تغيميت أهالي تونين تنتشر جماعتان دوّارتان إلى اليوم، وتتحرّكان فيه حسب مواسم تنوّع غلاله بين شعير وتين وتمر: جماعة حضرة الجليدات، وجماعة طوايف غبنتن، الجماعة الأولى ببنديرها تقيم الحضرة وتقرأ الفاتحة وتتقبّل الصدقات وتجمع الزّكاة وتقرّ الأوقاف حبسا على جدّها،وتصيب بالدّعاء من عارضها أو رفضها.-والدّعاء أسلوب العزّابة الإباضيّة في الرّدّ على منكريها- والجماعة الثّانية طوايف

غبنتن تسير بطبلها تلقي القصائد وتتسوّل المنائح وتقيم الأعراس وتؤدّي الرّقصات فتتغنّى بالأفراد والجماعات وتجمع الهبات والعطايا دون أن تطلب حقوق الزّكاة أو تحدّد لها جدّا روحيّا تنتسب إليه فتقيم له الأوقاف.. كلتا الجماعتين قد سمّيت بالطوالب فقد نعت الجليدات ب"الساساية" ويملكون وثائق الاعتراف السّلطوي لهم بهذه المهمّة، وسمّي الطوايف ب"الطوالب" شعراء جوّالون. فهل من باب المصادفة أن تنشط حضرة الجليدات وطوايف غبنتن في نفس مجال انتشار تغيميت أهالي تونين؟ وهل من تفسير لغياب انتشار هاتين الظاهرتين إلى اليوم في الخلفيتين الغربيّة والشماليّة من جبل مطماطة؟ وهل يمكن القول إنّ طلبة العلم من عزّابة تونين قد خلّفوا طلبة المال بين حضرة البندير في الزّاوية الجليديّة وعرس الطّبل في طوايف المجال البحري بين مارث وسيدي مخلوف؟ وهل من دور عندها للزّاوية الحمرونيّة بعرّام في تحويل علم تونين وتنظيماتها إلى ضروب جديدة من التّشكّل الدّينيّ تعتمد الشّعر والذّكر بدل الفقه والمتون والسّير؟ ثمّ هل كان مصير تغيميت أهل تونين أن تنقلب من طلب العلم ونشره إلى طلب المال وتدويره ضربا من الكدية المناسبة لمرحلة استكمال التمدّد السّنّي بالمجال الإباضيّ بشهادة الرّحّالة التّجاني؟ وقد شاع بين أهل هذا المجال قولهم"**الطّالب إذا باح**(فشل) **يولّي مدّاح**"

خاتمة:

حاولنا ضمن هذا البحث أن نقرأ وثيقة تنظيميّة تعلّقت بإيرادات الوقف في مجال شبه صحراويّ تشترك فيه كلّ الحلقات الإباضيّة بين أربغ ونفوسة وجربة ودمّر، انطلاقا من مخطوطة جواب البرّادي. واكتشفنا بداية كيف تعوّل المدارس الإباضيّة على تموين نفسها من ثمرات فضائها ،كما انتهينا إلى أنّ المدارس الإباضيّة تتكيّف في برامج تعلّمها مع محيطها وتستفيد من تنوّعات منظومات الإنتاج به. لتنتج نمطا من التعليم للحياة يحوّر طرق التدريس عند انتقال الطلاّب إلى المدارس نحو انتقال المدرسة إلى الطلاّب، وهو تحوير جعل المجتمع المحلّي منخرطا خلال مختلف مراحله في الفعل التعلّمي التّعليمي. إنّ اقتراب المدرسة من فضائها الاجتماعي وانخراطها فيه ومعايشتها لتحوّلاته بين البداوة والحضر هو الذي يضمن لها الاستمرار والانتشار، وبه حفظ المذهب الإباضيّ وجوده وحافظ على رباط معنويّ لجماعاته المشّتتة.

تركّز اهتمامنا على دور تحويل فضاءات الفلح مواطن تعبّد في جعل تنظيمات تغيميت إقرارا بوجوه من أشكال التديّن تتناسب مع الفضاءات المفتوحة المرتفعة في المصلّيات والمنخفضة في البيادر والممتدّة في السهول وهو ما سمح لنا باعتبار هذا النظام وسيلة ترابط تثبّت الاستمرار في الظهور الطقسي والكتمان السّياسيّ. فلا كتمان في العبادة وأشكال عمارة التّديّن مفتوحة عالية مرتفعة بارزة، ولا بوح فانتقال جماعات تغيميت انتقال ثقافيّ يحلّ مسائل المجتمع ويحاول بسط سلطة روحيّة توقف الغارات

على الجماعات النّشيطة في صحرائها، كما يسهّل تسوية وضعيات الجباية مع المحلّات العسكريّة المجمّعة لها. وبذلك كانت تنظيمات تغيميت وقاية للمجتمع البدويّ من تعدّيين تعدّي العصاة في الغوّارة النّهبة النّهمة من الأعراب، وتعدّي الظّلمة في سلاطين الضرائب وبايات المجبى، وهي وقاية لا تتحقّق دون وساطة سياسيّة وسلطة روحيّة كان العزّابة على درجة عالية من تملكّها، وكان السّلاطين بدورهم في حاجة إليها لتخفيف أعباء انتقال المحلاّت وخسائر المواجهات مع القبائل.

عالجنا مسألة التّسمية بتغيميت واكتشفنا في دلالاتها معاني النبل والطيب والاستقامة وربطناها بالغابة والواحة الفوّاحة لنؤلّف دلالات التسمية في اجتماع الطهارة والمهارة طهارة في النّفس والبدن ومهارة في تليين مواقف البدو وكبح تمرّدهم سيما والمناطق الّتي انتشر ت بها تنظيمات تغيميت هي أكثر المناطق هدوءا وأقدرها على وضع تنظيمات عرفيّة ترتّب حياتها اليوميّة وعلاقاتها الدّاخليّة وقد سمّيت في العصر الحديث بالشرطيات والعرفيات.، ولا تخفي نصوصها ترسّبها عن التنظيمات الإباضيّة في المجلس والميعاد والحلقة.

خلصنا من كلّ ذلك إلى أنّ وظائف الوقف: في تنظيمات تغيميت قد تحوّلت عن دعم التّعليم الإباضيّ إلى إعادة تشكيل ملامح التديّن العزّابي خلال العصر الوسيط ليكون تديّنا عمليّا يشارك فيه المتعلّم الرّعاة في مراعيهم حياتهم المتحرّرة فيبدأ من حيث بدأت رحلة الأنبياء، ويبارك فيه حفلات حصاد الفلاّحين في سهولهم فيحاكي مسيرة شيوخه جامعي محاصيلهم ومساعدي جيرانهم، ويتابع فيه عناية الجبليين بحقولهم ينتجون الفواكه فيستفيد منها ويفيد في تخزينها وتوظيفها، ولن يغفل باستمرار عن ثلاث: الصّلاة جماعة وقراءة القرآن في حلقات الختمة ، وعقد مجالس السّؤال لعامّة النّاس. إنّ أشكال العمارة المفتوحة في هذا المجال قد سمحت بأشكال تديّن مرنة ومنفتحة تتأقلم مع فضائها وتستوعب تلوّناته واختلافاته لتصهرها في نظام واحد متجانس: تغيميت فلح في الحقول وفلاح في العلوم وإصلاح في سياسة النّاس من خلفاء أفلح بن عبد الوهّاب بن رستم وحفظة سيرته ومسيرته.

قائمة المراجع والمصادر:

حسين الهاشمي، رسالة ماجستير، إشراف لطفي دبّيش، كلية العوم الاجتماعيّة تونس2014، (2014). تونس.

ابن خلدون. (بلا تاريخ). *العبر*.

ابن سعيد . (1970). *كتاب الجغرافيا*. بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر.

ابو العباس أحمد الدّرجيني. (بلا تاريخ). *طبقات مشائخ المغرب* (المجلد ج2).

أبو القاسم البرادي. (بلا تاريخ). رسالة تيغيميت. *مخطوط من نسخ سالم بن يعقوب*، 27.

البرادي, أ .(s.d.) .رسالة تيغيميت .*مخطوط من نسخ العالم سالم بن يعقوب*.30 ,

الحسين الهاشمي ، و الطاهر دغسن. (2020). تونس: مطبعة الإشهار قابس.

شفيق محمد. (بلا تاريخ). *المعجم العربي الأمازيغي، الجزء 2*.

علي الثابتي . (2016). عمارة جبل دمر في العصرين الوسيط والحديث، أطروحة دكتوراء. تونس.

A . DE Motylinski. (n.d.). *Dialecte berbère de R ' dames ;*.

HMENOUILLARD. (1910). *l'année agricole chez les indigènes de l'Extrême-Sud* (éd. 3). tunisien.